جمالية الزخرفة الإسلامية في المنمنمات

The aesthetic of Islamic decoration in miniatures

د. قليل سارة

جامعة أبي بكر بلقايد–تلمسان–، الجزائر، guellilg@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/04/11 تاريخ القبول: 2021/04/15 تاريخ النشر: 2021/06/01

ملخص: يعتبر الفن الإسلامي مرآة عاكسة لنشاط الفنانين المسلمين، وقد كان أثره واضحا في مختلف البلدان حيث أن جمالية هذا الفن برزت في أعمال الفنانين التشكيليين مما يبرهن اهتمامهم بهذا الفن الذي كان أثره يشمل عدة مجالات في الفنون مثل فن العمارة وفن الخط العربي وفن الزخرفة. ومن هنا فهذا البحث يهدف إلى التطرق للزخرفة العربية الإسلامية مزاياها وأشكالها الخاصة التي تميزها عن سواها من الزخارف الغربية، فمنذ دخول الإسلام غلب عليها الطابع الديني ومازال حتى يومنا هذا، خاصة أن الفنان طبعها بأشكال وألوان جعلتها متميزة وملفتة للنظر وبالتالي فإن من النتائج المتوصل إليها أن هذا الفن ارتكز على قواعد وأسس تنبع من الدين بدرجة أكبر والتقاليد المتوارثة أيضا، حيث برع الفنان المسلم في إبراز هذه المزايا والخصوصيات في مختلف أعماله الفنية، فالعلاقة التي ربطت الدين بالزخرفة عكست أعمال فنية تميزت بجمالية وإبداع متكامل. فكيف برزت جمالية الزخرفة الإسلامية؟

كلمات مفتاحية: الزخرفة–الفن–المنمنمات–جمالية–الزخرفة الإسلامية...

Abstract: Islamic art is a reflective mirror of the activity of Muslim artists, and its impact has been evident in various countries as the aesthetic of this art has emerged in the works of fine artists, demonstrating their interest in this art, whose impact has covered several areas in the arts such as architecture, Arabic calligraphy and decorative art. Hence, this research aims to address the Arab-Islamic decoration, its special advantages and forms that distinguish it from other Western motifs, which are predominantly religious. Thus, one of the findings is that this art was based on rules and foundations that stem More from Religion and also inherited traditions. the relationship between religion and decoration reflected works of art characterized by an integrated aesthetic and creativity. So how did the aesthetic of Islamic decoration emerge?

Keywords: Decoration-art-miniatures-aesthetic-Islamic decoration

1.مقدمة :

لقد شمل الفن الإسلامي العديد من البلدان وكان أثره واضحا وجليا على مختلف التحف الفنية، فكان مرآة عاكسة لنشاط الفنانين المسلمين وهذا ما يبين اهتمامهم بهذا الفن، وقد شمل هذا الأخير مجالات كثيرة منها فن العمارة، وفن الخط العربي، وفن الزخرفة...

وللزخرفة العربية الإسلامية مزاياها وأشكالها الخاصة التي تميزها عن سواها من الزخارف الغربية، فمنذ دخول الإسلام غلب عليها الطابع الديني ومازال حتى يومنا هذا خاصة وأن الفنان طبعها بأشكال وألوان جعلتها متميزة، ومن الفنون التي عكست الزخرفة ما يعرف بالمنمنمات.

والحديث عن جمالية المنمنمة الإسلامية يؤدي بنا إلى الحديث عن الخلفيات الزخرفية التي قد شغلت مساحة معتبرة وعكست اللوحة الفنية للحدث المحور وللنص، فقد لعبت الأرضيات أو الخلفيات المزخرفة دورا وسيطا بين الصورة والكتابة فهي تحمل في طياتها الإيقاع المشترك بينهما.

ولعل من أبرز مميزات المنمنمات الإسلامية أنها فن زخرفي، فقد استفاد الفنان المسلم من كل ما وقع عليه نظره من عناصر، سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم آدمية، لتحقيق أهدافه الزخرفية وقد ركب هذه العناصر وزواج بينهما في كثير من الموضوعات.[1]

1-تعريف الزخرفة:

الزخرفة هي فن من الفنون التي ترتكز على التجريد والنسب والتناسب والتكوين والفراغ والكتلة واللون والخط، وهي إما وحدات هندسية أو وحدات طبيعية تحور إلى أشكال تجريدية وتركت المجال لخيال الفنان وإحساسه وإبداعه حتى وضعت لها قواعد وأصول.[2]

فالزخرفة هي كل رسم يقوم به الفنان بقصد ملء الفراغ بهيئة جميلة متناسقة تستريح لها العين، وتكون خطوطا أو هيئات هندسية أو نباتية تعكس جمال النفس الإنسانية، فهي فن تشكيلي شأنها في ذلك شأن الفنون الأخرى.

2-عناصر الزخرفة:

تتشكل الزخرفة الإسلامية من مجموعة من العناصر التي تختص كل واحدة منها بمكانة ومنزلة فنية وجمالية عالية.

أ-العناصر النباتية:

إن الزخارف النباتية من أوضح المظاهر التي توضح ابتعاد الفنان المسلم عن محاكاة الطبيعة ونقلها نقلا حرفيا، فهي في أكثر الأحيان عناصر زخرفية مجردة كل التجريد.[3]

وتعد هذه العناصر وحدات زخرفية مستوحاة من الأشكال المختلفة للنبات أو ما تسمى بالوحدات الزخرفية النباتية، بحيث تسمح للفنان بالاستلهام منها سواء كان ذلك بنقل أشكالها الطبيعية كما هي أو بتحويرها أو برسم رموز مجردة لها.

تقوم الزخرفة النباتية أو ما يسمى ب "فن التوريق" على زخارف مشكلة من أوراق النبات المختلفة من الزهور المنوعة، وقد برزت بأساليب متعددة بحيث تكون الوحدة فيها مؤلفة من مجموعة من العناصر النباتية المتداخلة والمتشابكة، المتناظرة، تتكرر بصورة منتظمة.[4]

وتعتبر الزخارف النباتية إحدى المواضيع الرئيسية التي لجأ إليها الفنان المسلم بتوجيه من العقيدة الدينية بالرغم من أنه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة ولكنه أحسن رسمها وتوزيعها وتنسيقها والتأليف بينها بطريقة جعلتها تبدو جديدة بما أصبغ عليها من عبقريته الفنية وفلسفته ومفهومه للجمال، فبدت قوية واضحة.[5]

تتميز العناصر النباتية بمنحنيات لتكون الوحدة النباتية هي الصفة الغالبة لتكون أشكالها كالأزهار والأوراق والثمار بمختلف أنواعها وكافة أنواع النباتات الأخرى كما تتميز وحدتها بأشكال حلزونية تكون قابلة للتكرار بطريقة رائعة.

إضافة إلى الوحدات الزخرفية النباتية المجردة التي استعملها الفنان المسلم، استعمل زخارف نباتية أخرى أقرب إلى أصلها الطبيعي من الزخارف السابقة، ومن أهم أمثلتها عناقيد العنب وأوراقه وأنواع مختلفة من الشجيرات والأوراق والأزهار.[6]

وخلاصة القول إن عالم النبات كان مصدر إلهام الفنان المسلم، وكان تعبير هذا الفنان عن النبات يتراوح بين التجريد المطلق والتكوين المتحرر من كل أثر طبيعي وبين التزام أشكالها الطبيعية التزاما قد يكون نسبيا قريبا، وعلى الرغم من كل هذه الأساليب والاتجاهات، فإننا نلاحظ أن هناك شخصية متميزة وإطارا عاما يجعلنا نحكم على أن هذا الزخرف من منتجات الفن الإسلامي.[7]

ب-العناصر الهندسية:

تفنن المسلمون في استعمال الخطوط الهندسية وتشكيلها في أشكال فنية رائعة ومنسجمة ومتداخلة فنجد المربعات والدوائر المتداخلة...

ومن أقوال "هنري فوسيون" في الزخرفة الهندسية الذي كان دقيق التعبير عميق الملاحظة يقول: "ما أخال شيئا يمكنه أن يجرد الحياة من ثوبها الظاهر وينقلنا إلى مضمونها الدفين مثل التشكيلات الهندسية للزخارف الإسلامية، فليست هذه التشكيلات سوى ثمرة لتفكير قائم على الحساب الدقيق قد يتحول إلى نوع من الرسوم البيانية لأفكار فلسفية ومعان روحية، غير أنه ينبغي ألا يفوتنا أنه خلال هذا الإطار التجريدي تنطلق حياة متدفقة عبر الخطوط

فتؤلف بينها تكوينات تتكاثر وتتزايد، متفرقة مرة ومجتمعة مرات وكأن هناك روحا هائمة هي التي تصلح لأكثر من تأويل يتوقف على ما يصوب إليه المرء نظره".[8]

إن التشابكات الهندسية في هذا النوع من الزخارف كانت موجودة قبل الإسلام ثم أصبحت تبدو أكثر تعقدا وتشابكا بحيث تنطلق من المركز ثم تبدأ الأشكال ذات التنوع الكبير (معينات او مربعات أو مثمنات أو نجوم ثمانية الأطراف...) بالتطور وتتوزع طبقا لمبادئ التكرار المتناظر أو المضاعفة أو الانقسام كما لا ننسى أن للألوان دورا كبيرا في إبراز التشابكات الزخرفية الهندسية.

وقد شمل هذا النوع من الزخرفة عدة مجالات من الفنون بحيث نجده في تزيين العمائر والتحف الفنية وأيضا في تزيين المخطوطات...فبراعة المسلمين فيها وتفننهم وإبداعهم في هذا النوع من الزخرفة ما هو إلا دليل على علم وافر بالهندسة العملية ومدى تحكمهم فيها.

وعلى الرغم مما يبدو في الزخارف الهندسية الإسلامية من تعقيد، فإنها في حقيقتها بسيطة على أصول وقواعد، كان من بينها تقسيم المحيط إلى أجزاء متساوية، ثم توصيل النقاط بعضها ببعض للحصول على أشكال هندسية مختلفة، وهذا يدل على عناية المسلمين بعلم الهندسة من الناحيتين النظرية والتطبيقية.[9]

كما هم الفنان المسلم وشغله الشاغل أن يبحث عن تحوير جديد مبتكر يتولد من اشتباكات قواطع الزوايا أو مزاوجة الأشكال الهندسية، لتحقيق مزيد من الجمال الرهيب الذي يسبغه على التحف التي ينتجها. ومن الأمثلة عن الأشكال الهندسية التي استعملها: الدوائر المتماسة والمتجاورة والجدائل والخطوط المنكسرة والمتشابكة، بالإضافة إلى أشكال المثلث والمربع والمعين والمخمس والمسدس.[10]

ج-الزخرفة الخطية:

لعبت الزخارف الخطية دورا كبيرا في تاريخ الفنون الإسلامية، فبالإضافة إلى أنها تؤدي دورا جماليا فنيا فهي أيضا تؤدي غرض للتبرك ببعض الآيات القرآنية أو عبارات الدعاء. والواقع أن فن الخط لم ينل عند أمة من الأمم من العناية والتقدير بقدر ما نالته عند المسلمين ووصل إلى أسمى مكانة بين فنونهم جميعا.

فلقد خص الإسلام فن الخط برعاية خاصة لصلته الوثيقة بالعقيدة، كما حظي الخطاطون المسلمون بعناية وتشجيع كبيرين لنفس السبب، ولأن الكتابة العربية هي التي دوّن بها القرآن الكريم، فقد كانت تحظى بإجلال وقدسية في كل البلد.[11]

ونظرا لتقديس المسلمين للخط العربي فإن علماء التصوف المسلمين ينسبون إلى الحروف العربية أسرار خفية، إذ هي تجلب كما يعتقدون الخير والبركة، وانعكست هذه العقيدة على كثير مما أخرجه الفنان المسلم من موضوعات فنية وما شيده من مبان، وزخرفته بالآيات القرآنية والعبارات الدينية أو جمل متنوعة مختلفة من صيغ الدعاء والمدح، ومن ثم أصبح الخط العربي عاملا مشتركا في جميع مجالات الفن الإسلامي.[12]

وقد أدرك الفنانون المسلمون أن الخط العربي يتصف بالخصائص التي تجعل منه عنصرا زخرفيا يحقق الأهداف الفنية، وكثيرا ما استعمل الخط استعمالا زخرفيا بحتا دون الاهتمام بالمضمون المكتوب.[13]

وكان الفرنسي "غوستاف لوبون" "**Gustave le Bon**" علق في كتابه "حضارة العرب" على ذلك فقال: "لقد بلغ الخط العربي من الصلاحية للزينة ما جعل رجال الفن المسيحيين في القرون الوسطى في عصر النهضة، يكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم من اتفاقات بالكتابات الدينية الإسلامية، ليزينوا بها المباني المسيحية وخاصة الكنائس، وفي إيطاليا يوجد الشيء الكثير من هذا القبيل".[14]

تميزت هذه الزخرفة بميزات متنوعة من بينها قابلية المطاوعة على مدّ حروفه وإمكانية تشكيلها بطريقة فنية جمالية، وقد شمل الخط العربي عدة خطوط، واستخدمها للزينة والزخرفة، وكان الخط الكوفي في الصدارة باعتباره من أول الخطوط التي كتب بها الفنان المسلم ولطبيعة رسمه الممتازة في الزخرفة. ويعد الخط الكوفي من أكثر أنواع الخطوط القابلة للاشتقاق فهو يوظف في الكتابة بطريقة هندسية وزخرفية.

لقد كان لمختلف الخطوط العربية دور كبير في الزخرفة الإسلامية من خلال تشكيلاته وجماليته، وأيضا لتأثيره المباشر على المشاهد المتذوق للخط العربي، فالمسلمون ينظرون للخط العربي بنظرة تقدير وإكبار يتذوقونه بمتعة روحية لهذا استعمل للزخرفة بكثرة.

3-القيمة الجمالية للزخرفة في المنمنمات الإسلامية:

نجح الفنان المسلم في استخدام الوحدة الزخرفية كقيمة تعبيرية وقد تحدث "غايي" "**Gayet**" في كتابه "الفن العربي" عن المشاعر التي تثيرها الزخارف، فقال " أن الدوائر الهندسية إذا كانت زواياها المتعددة مزدوجة فإنها توقظ في النفس مشاعر عميقة مطبوعة بطابع الصفاء العذب أما إذا كان عدد الزوايا مفردا فإنها توقظ في النفس مشاعر عميقة مطبوعة بطابع الصفاء العذب أما إذا كان عدد الزوايا مفردا فإنها تبعث على الحزن المبهم والقلق والاضطراب". وقال أيضا:" إن الصورة المتكونة من الجمع بين المربعات والمثمنات تبعث على فكرة السكون أما تلك التي تنبثق من الأشكال ذات الزوايا التسع فإنها توقظ الإحساس بسر مبهم مضطرب".[15] وهناك تحدثنا عن نوع من أنواع الزخرفة فقط. إن هذا الفن الذي يعتبر دراسة جمالية هندسية، إنما هو فن قائم على مهارة فكرية وعقلية محضة وذلك عن طريق السعي إلى التعبير بعيدا عن أشكال العالم المادي، كما أن هذه الزخرفة الهندسية العربية نشأت عن عدة أساليب من التأليف أو الالتحام لأشكال هندسية على

مستوى رفيع من المهارة في أكثر الأحيان. وهنا نرى أن جمالية الزخرفة الهندسية صاحبتها دلالات رمزية لما يسعى الفنان إلى ترجمته في عمل فني.

إن الحضور البارز للزخارف في المنمنمات الإسلامية التي تشغل مساحات ليست بالقليلة في خلفيات وأرضيات الأشكال المصورة تجعلنا نشير لروعة تلك الزخارف في سياق الحديث عن جماليات المنمنمة، فقد أبرزت المنمنمة جمالية وتصورا خاصا للسطح من خلال التكوينات المختلفة المليئة بالحركة المعتمدة على الوحدات الزخرفية التي حولت من مجرد حلية أو زينة إلى أداة للتعبير ورموز ذات دلالات ومن الفنانين التشكيلين الجزائريين الذين عكسوا هذا النوع من الفن في أعمالهم الفنان "حاجم المسعود" والفنان "محمد بوثليجة".

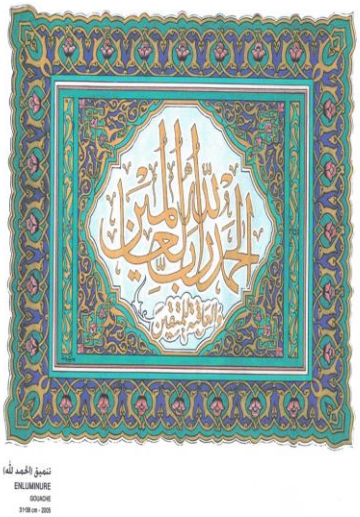

منمنمة الفنان محمد بوثليجة

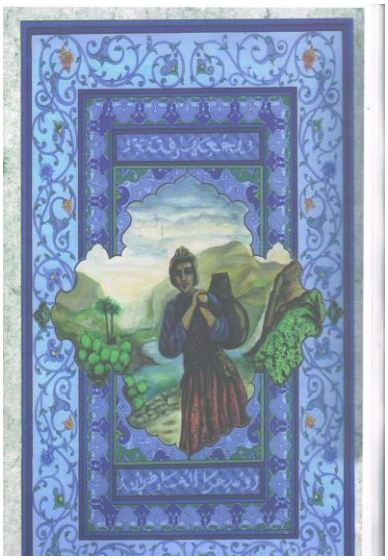

منمنمة الفنان حاجم مسعود

وتختلف الوحدات الزخرفية في المنمنمة الإسلامية بين وحدات هندسية مجردة هي الأخرى بحيث تكون لها علاقة وطيدة بالصورة أو الموضوع أو الفكرة المتناولة في المنمنمة وفي مجال التكوين في المنمنمة الإسلامية نجدنا أمام نوعين من الوحدة:

أ-وحدة قائمة على علاقات لانهائية:

لقد تميزت الوحدة الزخرفية بعدة جماليات من حيث الإيقاع والحيوية وهذا النموذج يتضمن كل الأشياء في محيط عالم الفنان المبدع، بحيث نلاحظ أن كل الوحدات والأشكال المتداخلة تتميز بخاصية التكرار والتماثل وغيرها من الخصائص التي تبعث البهجة وتدفعنا للتأمل ومحاولة تتبع من بدايتها وما هو قادم وما قد انتهى وما قد يتطلب جهدا ذهنيا كبيرا وقد تتجسد في وحدات ذات أشكال نباتية أو هندسية من خلال خطوط متقاطعة وهيئات إيقاعية تتخذ أبعاد لا نهائية.

ب-الشريط المزخرف: (الزينة في الأطراف-الحاشية)

إن تحقيق الوحدة التي تظهر من خلال التموجات والخطوط على الحواف أو ما يعرف بالحاشية، يبرز لنا الشخصية العالمية لزخرفة الفن الإسلامي بحيث نلاحظ التوازن من ناحية التكوين بين الأجزاء الغنية بالعناصر الزخرفية وتنوعها الكبير مع المساحات التي تحيطها وتتسم بالبساطة، مما يجعل هذه العناصر رغم كثافتها تبدو متوازنة تماما في سياق التكوين العام،" وقد تظهر اختلافات في العمل الفني تصل إلى حد التناقض مما يجعله ثريا وتجعل الخلفية والأشكال تظهر في نسيج متكامل.

ومن بين الفنانين الذين كانت منمنماتهم تعكس هذا الإيقاع المتناغم الفنان الجزائري محمد راسم فقد اهتم بالجانب الزخرفي وعكسه سواء على شريط زخرفي متواصل أو في الملابس أو العمارة المزينة بالفسيفساء والجدران المذهبة والقبب.

فلا يعيب عن المتأمل لأعمال راسم ما فيها من حرص على الاتزان بما يقترب من روح الزخرفة العربية الإسلامية عن طريق تكرار الوحدات وتناظرها، وتلك البهجة الناتجة عن كثرة الألوان والحس بانطلاق الخيال وغناه، ودائما ما تصوّر أعماله عالما مفعما بالحياة.[16]

ونجد أن أسلوب محمد راسم يشبه أسلوب الفن الإسلامي القديم من ناحية التكوين بحيث تتكون المنمنمة عنده من رسم موضوع معين بأسلوب واقعي وتشخيصي دقيق، ونجده يؤطر الصورة بإطار بديع من الزخارف الدقيقة الجميلة، ، كما نجده يدخل عنصر الكتابة بحيث تحتل الكتابة حيّزا في اللوحة محسوبا بدقة فائقة، وهذه الكتابة محصورة في إطار معين من الزخرفة البديعة، وعليه نلاحظ أن محمد راسم قد استفاد من أصوله الإسلامية، ومن دراسته الأكاديمية الغربية، ليخرج لنا فنا بطابع خاص به.[17]

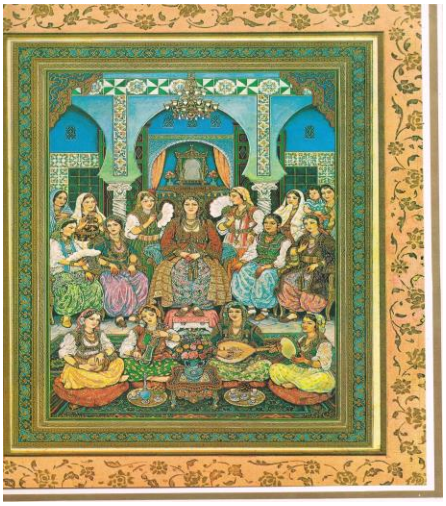

منمنمة "غداة زفاف" لمحمد راسم

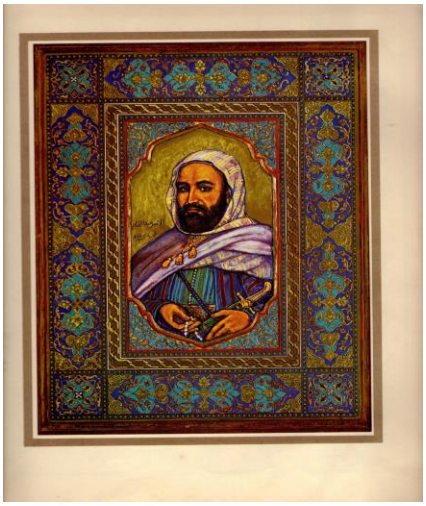

منمنمة "الأمير عبد القادر" لمحمد راسم

كما عكست منمنمات الفنان التشكيلي الجزائري محمد تمام جمالية الزخرفة في ثناياها، فلقد تأثر بمحمد راسم وسعى لتفنن في عنصر الزخرفة، ومن بين أعماله منمنمة "الموسيقيون" ومنمنمة "امرأة صحراوية" ومنمنمة "الأمير عبد القادر والإمبراطور نابوليون الثالث" فقد جست أعماله التناغم والإنسجام والإيقاع والوحدة والتكرار....

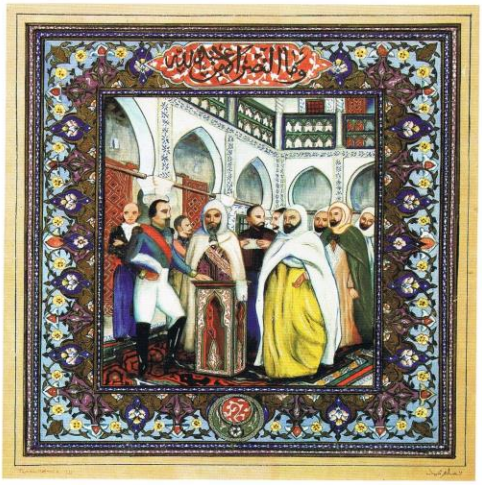

منمنمة"الأمير عبد القادر والإمبراطور نابوليون الثالث"

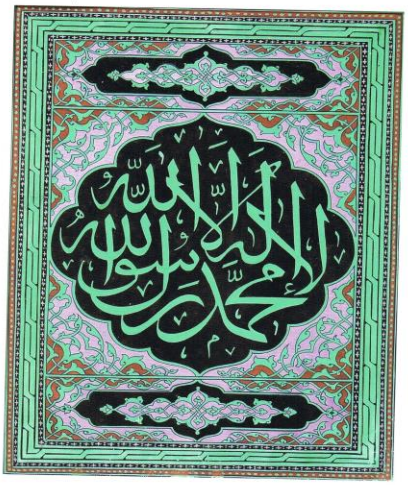

منمنمة "الشهادة"

4. خاتمة:

في الآخير نتوصل إلى أن المنمنمات الإسلامية عكست جمالية الزخرفة الإسلامية بشتى أنواعها بحيث شغلت مساحتها وعكست اللوحة الفنية بطريقة مبدعة تحمل في طياتها مختلف الخصائص من تناغم وانسجام وتناسب ووحدة وتكرار...حققت عدة أهداف وكانت دورا وسيطا بين الصورة والكتابة تارة، وكانت هي الموضوع الرئيسي تارة أخرى.

5. قائمة المراجع:

1-أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي أصوله فلسفته مدارسه، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ص110.

2-محمد عبد الله الدراسية وعدلي عبد الهادي، الزخرفة الإسلامية، عمان، الأردن، مكتبة المجتمع العربي، الطبعة الأولى، 2009م، ص13.

3-أبو صالح الألفي، المرجع السابق، ص111.

4- محمد عبد الله الدراسية وعدلي عبد الهادي، المرجع السابق، ص39.

5-محمد عبد العزيز مرزوق، الإسلام والفنون الجميلة، القاهرة، دار الكتاب، 1944م، ص42.

6- أبو صالح الألفي، المرجع السابق، ص112.

7-المرجع نفسه، ص113.

8- محمد عبد الله الدراسية وعدلي عبد الهادي، المرجع السابق، ص41، ص42.

9- أبو صالح الألفي، المرجع السابق، ص114، ص115.

10-المرجع نفسه، ص114.

11-زكي محمد حسن، تراث الإسلام، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، 1936م، ص16.

12-عبد العزيز محمود لعرج، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، 1990م، ص247.

13- أبو صالح الألفي، المرجع السابق، ص118.

14-غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، مصر، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، د.ت، ص511.

15-أمل أحمد محمود نصر، جماليات المنمنمة الإسلامية، المؤتمر العلمي الدولي الفن في الفكر الإسلامي، الأردن، وزارة الثقافة، 2012م، ص14.

16-كلود عبيد، التصوير وتجلياته في التراث الإسلامي، لبنان، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2008م، ص175.

17-إبراهيم مردوخ، مسيرة الفن التشكيلي بالجزائر، الجزائر، دار هومة، الطبعة الأولى، 2005، ص27.